محاضرة: خطاب المتخيل

من أهم الأسئلة التي تطرحها نصوص أدب الرحلة: كيف يتشكل المتخيل داخل رحم نص محسوب على النصوص الناقلة لتجربة واقعية وشخصيّة؟!

سأستعير هنا مقولة الفيلسوف اليوناني هيراقليطس "لا يمكن للمرء أن يستحم في النهر نفسه مرتين" لما لها من أبعاد إيحائية يمكنها توضيح طبيعة العبور الذي تشهده الرحلة بانتقالها من فضاء التجربة الواقعية إلى نوع سردي يقيم عوالمه بين ضفتي الواقع الموضوعي والاحتمال المتخيل.

تعاش كل تجربة حياتية مرة واحدة في بعدها الواقعي، لتنتقل لاحقاً إلى تجربة مخزنة أو مستعادة، تتولّى الذاكرة حفظ تفاصيلها التي تتعالق بمجموع الخبرات، فتتجلى كمعرفة بالذات والآخر والعالم "ويعد الخيال جزءا من تلك المعرفة التي هي ذات تلوينات معينة غير منسجمة تختلف من رحالة لآخر، ومن مرحلة ثقافية وفكرية لأخرى، بنسقها ومهيمنها تتضمن التجارب وعدة رؤى وانطباعات ذاتية تنبني ثم تتعدل قبل أن تستقر في "قناعات" تصير "معرفة" عند راوي الرحلة"(شعيب حليفي، ص371)، أو يمكن أن نسميها أحكاماً تقريريّة هي في طبيعتها مزيج من المعرفة العينية (المشاهدات) والخلفية الثقافية (الأحكام المسبقة) وفعل التذكّر، لتتحوّل لاحقاً إلى فعل كتابة، وهنا يحضر المتخيل بوصفه أحد الركائز التي يستند إليها البناء الفني للنص.

"يعد المتخيل عنصرا متجذرا في فعلي الحكي والتذكر، بشكل مواز للإبداع كمقدرة، يعمل على تطوير الموضوع، ووصله بآفاق أخرى، فعملية التحويل لا تتم إلا عبر قنوات، منها قناة الخيال الذي يجعله ابن عربي أتم علوم المعرفة، وهكذا يصبح كل نص رحلي خليطا منصهرا للواقعي والاستيهامي والمحتمل، وعناصر شذريّة لمسير ومشاهدات وتأويلات وانطباعات وتأملات وأحلام" (شعيب حليفي، ص372)، وهذا ما يضفي على بنية النص طابعها الهجين المركب من السيري والتاريخي والجغرافي والمشاهدات والحكايات المسموعة والأخبار المنقولة والعجيب (اللامألوف)، ويفسر ردود الفعل المنكرة والمكذبة لما تحمله نصوص أدب الارتحال من سرود وأخبار، **"في حين تقول الثقافة الإغريقية إن كل رحالة هو كاذب وبالمقابل يخلص بعض الباحثين إلى أن النص الرحلي عليه أن يمارس الكذب حتى يقول الحقيقة"**(ص 373)، وهنا علينا أنّ نشير إلى أنّ **المقصود بالكذب هو الخيال بعيداً عن كل حكم أخلاقي، " فوحده الكذب بمعنى الخيال فضيلة تتطلبها العملية الإبداعية وتضمن استمراريتها** "(شهرة بلغول، شرقنة قصص الأطفال الغربية في عشر ليالٍ وراوٍ للطاهر بن جلون، مجلة إشكالات، ص915).

يحضر الخيال في الرحلات عموما، لكنه يتمظهر وفق قطبين: في الرحلات الواقعية يحضر بوصفه مكونًا جزئياً يتعالق مع بقية المكونات المشكلة لبنى النص الصغرى والكبرى، أمّا في الرحلات المتخيّلة (المحتملة) فهو عنصر مهيمن تتأسّس عليه عوالم النص.

يقول الغزالي: "السفر سفران، سفر بظاهر البدن عن المستقر والوطن إلى الصحارى والفلوات. وسفر يسير القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السماء. وأشرف السفرين السفر الباطن" والمقصود هنا التمييز بين الرحلة الواقعية والرحلة المتخيلة التي يكون الباعث عليها تصورات فلسفية أو تأملات صوفيّة أو خلفية دينية أو أدبية

تعتبد هذا البناء الغيبي مثل رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، "وكأن هذا النوع من الأسفار الذهنية بحث عن حلم ويقين ضائعين"(شعيب حليفي، ص374).

كما يتمظهر الخيال في الرحلات الواقعية من خلال الخلفية الأساسية لبعض الرحلات التي يكون الباعث عليها تأويل حلم أو رؤيا أو وهم أو رغبة في التكفير عن ذنب، ومثال ذلك ابن جبير في رحلته الأولى، حيث ذكر أن الأمير أبا سعيد عثمان بن عبد المؤمن استدعاه ليكتب له رسالة، فلما أقبل عليه وجده في مجلس شراب فعرض عليه فأحجم وقال "يا سيدي ما شربتها قط" فقال "والله لتشربن منها سبعا" فلما فرغ منها ملأ له الكأس دنانير سبع مرات وصبها في حجره، وأراد محمد بن جبير أن يكفر عن هذا الذنب الذي أرغم على اقترافه ولم يجد كفارة لها سوى الخروج إلى الحج.

يسهم تقاطع النص الرحلي مع النصوص السردية القديمة (الأحاديث والأخبار) في تكثيف حضور المتخيل، وتشير الباحثة رنا قباني إلى أن الغرض من المتخيل في هذه النصوص هو إمتاع المتلقي، بينما يؤكد الباحث محمود إسماعيل أن المتخيل في تلك المتون قد تشكّل في الزوايا والتكايا والأربطة. (شعيب حليفي، ص375)، وينبغي أن نشير إلى أن المتخيل يسهم في انفتاح النص الرحلي وتعدد أفق تأويله.

يتجلى المتخيل في النص الرحلي في حضور مهيمنين أساسيين هما: الحلم والعجائبي.

1/ الحلم:

"الحلم/ الرؤيا من بقايا النبوة وأجزائها بل هي أحد قسمي النبوة"

"الله وفق تعبير ابن سيرين هو الخالق لجميع ما نرى في المنام من خير أو شر. فيما يستشهد النابلسي وغيره في مواضع مختلفة بقوله عليه الصلاة والسلام، ومن لم يؤمن بالرؤيا الصالحة لم يؤمن بالله وباليوم الآخر".

"الأحلام هي رسائل يبعث بها المرء إلى نفسه" هاملت/ شكسبير.

للحلم حضور مكثف في الثقافة الإسلاميّة بالنظر إلى ارتباطه بجوانب دينيّة عقديّة مقدّسة (المقولة 1،2 إذ ينفتح الحلم على الغيبي والمقدّس)، و"إذا كانت الأحلام في العموم "إنتاجاً نفسياً" فهي أيضا انعكاسات للهامشي والمقصي ذي المعنى في الحياة اليوميّة (ص386) وهذا ما ينطبق على المقولة الثالثة التي تجعل الحلم نافذة تطل على الجانب الباطني في النفس البشريّة.

"النص الرحلي هو مجموع إدراكات، منها إدراكات اليقظة وتسمى رؤية وإدراكات النوم وتسمى رؤيا، وكل الإدراكات في علاقتها الزمنية، الماضي والحاضر والمستقبل، تتفاعل فتأتي أهميتها الفنية من كون هذه الإدراكات التي هي نسغ الحلم في النص، تعيد صوغ الواقع من خلال رؤيته مرة أخرى بطريقة تعمد إلى تعديله أو تكسيره وخلخلته، ودمج تلوينات أخرى مغايرة للنسيج النصي العام، من خلال تجذير البعد الاحتمالي لإضعاف الخلفيات الواقعية للنص، حتى أنه يصبح أحيانا ذاكرة للنص ومرجعيته رغم أنه يبدو ضائعا في ثنايا الرحلة، يلتقطه اللاشعور ليرتق شراينه وشرايين الشعور – والواقعي" (ص387).

"الرحلة برمتها هي تحقيق لحلم وبحث عن حلم، يمكن أن يتمظهر في رغبة أو رسالة مرتبطة بالدنيوي أو الأخروي" (ص388).

"الحلم في الرحلة بنية تحفيزية مؤثرة، رغم أن رحلات أخرى لا يحضر فيها الحلم بالشكل الطبيعي(ابن فضلان، ابن جبير)، والحلم في الرحلة هو سفر، يخضع بدوره للتذكر ثم للكتابة ومعاودتها وفق مقتضيات التحويل من الشفوي المتذكر إلى المكتوب المكثف"(ص388).

صيغ حضور الحلم:

تتعدد صيغ حضور الحلم في النص الرحلي، سواء على مستوى الصياغة أو الدلالة، إذ ترد صيغتان أوليتان:

-حلم مرتبط بأحداث الرحلة: بمعنى أنها تخص الرحالة (الراوي/ الراوي) ومضمونه وثيق الصلة بمجريات الرحلة.

-حلم غير مرتبط بسياق الرحلة يراه الراوي.

كل حلم هو بناء لرغبة واستكمال لها من أجل تحقيق رغبات دفينة في المستقبل يختلط فيها الوهم بالواقع وتمحي فيه الحدود بين الحقيقة والحلم، كما يعكس اللجوء إلى الحلم/ الرؤيا قلق واضطراب الذات جراء المحن التي تكابدها، ومثال ذلك ابن أبي محلي في رحلاته الفعلية والذهنية، حيث كان يقف في دائرة العجيب واللامألوف فيمتزج لديه الحلمي بالواقعي، يقول: "فقال لي: قم فاركع أربع ركعات أو اثنين شكرا لله. وصل على النبي (ص) كذا وكذا، ثم نم في موضعك إلى صلاة العصر، فما وسعني إلا طاعته، غير أني لا أعلم تأويل قوله شكرا لله، إذ لم يبين لي ما أشكره عليه خصوصا وإن كانت نعمه تعالى على عبيده لا تحصى. فنمت كما أمرني قهرا(...) قلت أفي يقظة أنا أم في منام" (ص389).

إنّ الرحالة الراوي هو الذي يجمع بين الواقعي والحلمي، فيبدو هذا الأخير استيهاما (خلق واقع متخيل لإشباع رغبة مكبوتة يتعذر تحققها في الواقع) خاصة حين يتولد الحلمي من حقائق الواقع كأن يكون صيغة عجيبة مشبعة بالأمل أو حاملة لبشارة في ظل واقع تتعدد فيه الضغوط والاكراهات، مثال ذلك رحلة أفوقاي "ناصر الدين على القوم الكافرين" التي يحضر فيها الحلم/ الرؤيا أربع مرات على النحو الآتي:

1- يرى في نومه أنه يتلو سورة الإخلاص تقوية للنفس.

2- يوم سفره يرى في نومه جماعة من الشياطين تدور من كل جانب فيجعل يقرأ "قل هو الله أحد" وهي تهرب وترجع.

3- رأى في نومه شيئا ضاع منه فلما قام وجده.

4- رأى في نومه فقيها يتحدث إليه في شأن كتابه (الرحلة). (ص390).

يقدم الحلمان (1،2) لمحة عن طبيعة الصراع بين الخير والشر في نفس الراوي، الذي ينتهي بانتصار الخير الذي يتجلى في التمسك بالجانب الديني، في الحلم 3 يتحول الحلم إلى مكاشفة للغيب والمغيّب فيما يبدو تجاوزا للحدود بين الواقع

والخيال ودخول مجال الكرامات، في حين يسبغ الحلم 4 على كتابة الرحلة طابع القداسة الذي يتأتى من الحوار الذي دار بين الراوي والفقيه.

"إن الحلم عند أفوقاي هو حلم مذوّت وعلامة نصية تتصل ببنية النص من خلال المحن التي عاشها والمآزق التي وجد نفسه فيها في بلاد الكفر وهو يجادل ويساجل" (ص393) (الكتاب مختصر لكتاب "رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب" لأحمد بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجري الأندلسي المولود سنة 1569، زار مع بداية القرن 17م بعض الدول الأوروبية وألّف كتابه حول سفره مسجلا ملاحظات حول المنلطق التي مرّ بها كما ضمّنه مجادلة للمسيحيين واليهود في كثير من عقائدهم المنحرفة وأفكارهم الضالة، أتمّ كتابه سنة 1641م).

أمّا ابن بطوطة فيورد في نص رحلته العديد من الأحلام التي نورد أوّلها، يقول: "رأيتني ليلتي تلك وأنا نائم بسطح الزاوية، كأني على جناح طائر عظيم يطير بي في سمت القبلة يتيامن ثم يشرق، وينزل في أرض مظلمة خضراء ويتركني بها فعجبت من هذه الرؤيا" (ص393-394).

يتجلى هذا الحلم كتلخيص استباقي لما سيورده نص الرحلة لاحقاً (إذ يتضمن كل عناصرها)، بدءاً بتحديد الزمن ليلاً، والنوم في مكان مقدس (الزاوية)، ثم حضور الحلم وعناصره الحاملة للبشارة مثل عظمة الطائر، التيامن والشرق، والأرض الخضراء، إذ يتبع ذلك بتقديم تفسير الشيخ لهذا الحلم "ستحج وتزور (ص) وتجول في بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وتبقى بها طويلا وستلقى بها دلشاد الهندي، يخلصك من شدة تقع فيها" (ص394).

2/ العجائبي:

يعرفه ابن منظور بقوله: " العجْب والعجَب ما يرد عليك لقلة اعتياده، وأن أصل العجب في اللغة إن الإنسان إذا رأى ما ينكره ويقل مثله قال قد عجبت من كذا"

"العجَب النظر إلى شيء غير مألوف ولا معتاد"، "والتعجب أن ترى الشيء يعجبك تظن أنك لم تر مثله" والملاحظ أن هذا التعريف لا يستجيب للدلالات الموسعة التي تقدمها لفظة العجيب والعجائبي نظرا لانتقالها إلى مجال النص الأدبي وما يتعلق ببنائه وموقف المتلقي منه، في حين يعرف القزويني العجب بأنه "حيرة تعرض للإنسان لقصوره عن معرفة سبب الشيء أو عن معرفة كيفية تأثيره فيه" ويتقاطع هذا التعريف مع ما أوردها الجرجاني بقوله "العجب تغير النفس بما خفي سببه وخرج عن العادة مثله" (ص422).

يعود هذا الغنى في التعريفات إلى انفتاح العجائبي على المتخيل بمختلف مرجعياته العالمة والشعبية، إضافة إلى تعدد تمظهراته في النصوص الدينية والتاريخية ...، إضافة إلى ارتباطه الوثيق بالثقافة والعصر الذي ينتمي إليه، وتوجهات ورؤى معاصريه، فما يعد عجيبا في ثقافة قد يعد مألوفاً في ثقافة أخرى وهكذا، يحتكم تحديده إلى طبيعة النظرة التي يحملها المتلقي بمرجعياته الثقافية المختلفة، كما أنّ العجيب يقاس بالمسافة بينه وبين المألوف الذي أقرّه المنظور الثقافي في عصر ما.

"العجائب من وجهة نظر ماكسيم رودنسون أشياء تثير الدهشة والإنبهار، بينما يرى آندري ميكيل أن العجيب هو تشكيل تصاعدي أو تنازلي لمعطيات طبيعية، وينظر الباحث الشادلي بويحي إلى العجيب أنه لا يكون قابلا للتفسير،

فيما يخلص توفيق فهد إلى ان العجيب أساسا هو الغريب" (ص 423)، نلحظ أنّ هذه التعريفات لا تقيم حدوداً واضحة بين العجيب والغريب بتشديدها على الأثر الذي يحدثه في المتلقي دون الإشارة إلى طريقة التعاطي معه (تخريجه).

أمّا **تودوروف** فيعرِّف العجائبي بأن حالة التردد التي يشعر به كائن لا يعرف سوى القوانين الطبيعية أمام حدث له صبغة فوق طبيعية (محدثا في نفسه شعور الدهشة والخوف والترقب)، وحالما يحسم أمره ويهتدي إلى الحل الذي يرى أن الأمر لا يعدو أن يكون وهم الحواس ونتيجة الخيال وأن قوانين العالم لم تتغير، يدخل حينئذ مجال الغريب الذي يخضع دائما إلى تفسير عقلي ومنطقي"، في حين أن التفسير اللامنطقي يموضعه في دائرة العجائبي.

يشير تودوروف إلى أن اللقاء بالآخر المختلف في النصوص الغربية يتجلى ضمن أربعة مراحل: الاكتشاف، الغزو، التواصل، الحب، أمّا في الرحلات العربية فتتداخل المراحل إذ يبدو الاعتزاز بالذات والحذر والنظرة العجائبية.

"لا تخلو الرحلات العربية، في الغالب، من التعبير بمفردات التعجب، إلى اللقاء مع العجائبي والتصادم معه، ويمكن الجزم بخصوص الرحلة أنها تجميع لعجائب وغرائب الآخر، إنسانا وعمرانا وتاريخا، لاعتبارات يلتقطها الراوي–الرحالة أو ينسجها؛ فهي شيء غير مألوف يوضع دائما في مواجهة مع المألوف؛ والرحلة هي خروج من دائرة ما هو مألوف إلى انفتاح على اللا مألوف وتجلياته" (ص430).

أشار ابن جزي في تقديمه لرحلة ابن بطوطة إلى ما تحفل به من غريب وعجيب، يقول: "فأملى ذلك ما فيه نزهة الخواطر، وبهجة المسامع والنواظر، من كل غريبة، أفاد باجتلائها وعجيبة أطرف بانتحائها"، إذ يجعل من المعطيات الغريبة والعجائبية أشياء يسعى الرحالة لالتقاطها، لما تنتجه من نزهة للخواطر وابتهاج للمسامع والنواظر، وكأنه يهيئ القارئ للاستمتاع بها، ويتجلى هذا المسعى في تعبير الرحالة المتواصل عن انبهاره ودهشته، بدءا من العنوان، إذ ربط ما التقطه من مشاهدات في الأقطار والأمصار بالغريب والعجيب.

يمكن قراءة العجائبي في النص الرحلي ضمن ثلاثة مستويات:

–اللامألوف الاجتماعي/ اللامألوف الطبيعي (فوق الطبيعي)/ الغيبي.

صيغ رصد العجائبي في النص الرحلي:

توجد ثلاث زوايا متواترة هي:

1/ المرئي المشاهد: مثاله ما نقله النابلسي في رحلته ""اتفق أن دخولنا إلى هذه القرية كان قبيل غروب الشمس، فدعونا الله تعالى أن يمسك لنا الشمس حتى نصلي العصر فكان كذلك بركة يوشع عليه السلام الذي ردت له الشمس" (العجائبي هنا يرتبط بذات الراوي الذي يرتبط بكرامات الرحالة/ الأنبياء الآخرين).

2/ المسموع– المروي: إذ ينقل الرحالة أخباراً سمعها بصيغ متعددة كأن يورد أفعالاً بصيغة المجهول، أو يوظف صيغ: أخبرني، حدثني، ذكر لي...، مثل "ولقد حدثني بعض التجار أنهم خرجت إليهم سنة من السنين سمكة عظيمة فثقبوا

أذنها وخرج من داخلها جارية حسناء جميلة بيضاء سوداء الشعر، حمراء الخدين عجزاء، من أحسن ما يكون من النساء ومن سُرتها إلى نصف ساقها جلد أبيض كالثوب خلفه يتصل بجسدها يستر حيها وجسدها كالإزار دائر عليها. فأخذها الرجال إلى البر وهي تلطم وجهها وتنتف شعرها وتعض ذراعها وثديها وتصيح وتفعل كل ما تفعل النساء في الدنيا حتى ماتت، فتبارك الله، ما أكثر عجائبه وخلقه وما لم نشاهد أكثر وما لم نسمع به أكثر".

3/ المقروء–المستذكر: قد يستدعى العجائبي بالتذكر نتيجة رؤية قريبة حفّزت استحضاره، فيكون أقرب إلى التاريخ منه إلى البوح في طابع الإحالة إلى الماضي، مثال ذلك النابلسي في رحلته الذي كان كثير الرجوع إلى ما قرأه عن عجائب التاريخ، إذ يرجع مثلا إلى كتاب الزيارات للهروي ليستحضر عجيبة من عجائب النبي يوشع الذي أمره الله بقتل الجبابرة فذهب وهزمهم يوم الجمعة ولما كادت الشمس أن تغرب قال اللهم أردد الشمس علي، وسأل الشمس أن تقف، والقمر أن يقيم حتى ينتقم الله من أعدائه قبل دخول السبت، فوقفت الشمس وزيد في النهار ساعة حتى قتلهم أجمعين" (عجائبي مرتبط بالمعجزة والكرامات)، استحضار أخبار إرم ذات العماد ومدينة النحاس في رحلة الغرناطي" تحفة الألباب ونخبة الإعجاب"ص55.

يختار كل رحالة مسارات العجائبي وفق الصيغة التي يرتضيها لمتنه، فمثلا نجد كل من النابلسي والغرناطي يؤثران توظيف صيغة المقروء المستذكر، في حين يستحضر ابن بطوطة العجائبي المشاهد والمسموع أكثر.

أمّا عن **مسارات العجائبي** فهي في عمومها ترتبط بمسارين أحدهما **دنيوي (اجتماعي) والآخر غيبي (ديني)**.

يهيمن العجائبي الديني على الرحلات الحجية والزيارية، في حين يهيمن العجائبي الاجتماعي على الأنواع الأخرى.

يمكن رصد العجائبي في النصوص الرحلية من منظور تيماتي (موضوعاتي) ضمن أربعة محاور: الغيبي (تلقي الغيب والتواصل، تدخل الغيب، المكاشفة)/ الخارق (خوارق في السلوك والطباع، تكليم الجماد والميت والحيوان، السحر، عجائبي الطبيعة)/ المسخ والتحوّل/ الاختفاء.